المحاضرة السادسة: المنهج وأصالته في العلوم الإسلامية

لقد عرفنا أن البحث العلمي هو التقصي عن الحقائق و الكشف عنها بطريقة علمية و مناهج محددة ، فما هو المقصود بمنهج البحث العلمي؟ وكيف نشأ وتطوّر وصار علما؟ وما أهمية المناهج في البحث العلمي؟ وهل للمنهج الإسلامي مميزات خاصة به؟ هذا ما سنتناوله في هذه المحاضرة وفق الفروع الآتية.

الفرع الأول :تعريف المنهج

أولا : لغة : إذا رجعنا إلى معاجم اللغة نجد أن كلمة " منهج" تعني الطريق أو المسلك الواضح المستقيم البين [1] و قد جاء في القرآن الكريم {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً } [المائدة 48] " أي طريقا واضحا في الدين يمشون عليه " [2] وفي حديث العباس " لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تركّكم على طريق ناهجة [3] أي واضحة بينة .

هناك ثلاث مصطلحات منهجية ترد في بحوث الباحثين و هي : النهج و المنهاج ، و المنهج و لكل منهما استخداما خاصا فالنهج هو الطريق المستقيم الواضح و المنهاج هو الخطة المرسومة و المنهج هو الطريق البن إلى الحق في أيسر سبله [4] .

ثانيا: اصطلاحا : عرفه الدكتور عبد الرحمان بدوي منهج البحث العلمي " الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل و تحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة [5]

و في مجال العلوم الإسلامية و التعامل مع النصوص الشرعية يعرفه الدكتور أبو اليزيد العجمي بأنه " المبادئ التي يلتزم بها كل يجتهد في استنباط الأحكام أو الحلول من النصوص"[6]

و منه يتضح أن منهج البحث العلمي : هو مجموعة الخطوات و القواعد التي يتبعها الباحث في التقصي عن الحقائق أو البرهنة عليها .

1– ابن منضور ، لسان العرب ، ج 2 ، ص : 383 .

– فيروز أبادي ، القاموس المحيط ، ج 2 ، ص : 210

2 – الجلالين : تفسير الجلالين ، ص:.

3– أخرجه الدارمي في سننه

4– وحيد رجاء دويري (م س) ص 127 .

5– عبد الرحمان بدوي ، مناهج البحث العلمي ، ص 5 .

6– أبو اليزيد العجمي: دراسات في الفكر الإسلامي. ص: 150

أما علم المناهج: فهو" العلم الباحث في الطرق المستخدمة في العلوم للوصول إلى الحقيقة"[7]

الفرع الثاني : نشأة المنهج و علم المناهج:

لقد فكر الإنسان منذ القدم في أساليب و طرق تجعله قادرا على تلبية متطلباته و حل مشكلاته بما أتيح له من وسائل و إمكانيات و هكذا تحدث تراكمات على مستوى المعارف و العلوم ومناهج التفكير و البحث

إن الباحث في الحضارة الفرعونية و ما تركته من آثار مادية يستنبط أنه كان لفراعنة منهاج بحث في مختلف العلوم حيث استخدموا المنهج الاستنباطي التأملي و المنهج الاستقرائي التجريبي و إن لم يسموهم بهذه التسمية و يأخذوا بقواعدها المعروفة حاليا و استخدم هذان المنهجان كذلك في حضارة بلاد الرافدين و حضارة الشرق الأقصى.[8]

لقد بدأت ملامح المنهجية تطهر مع الحضارة اليونانية حيث نجد أن أرسطو هو أول من وضع البحث العلمي و طرق الاستدلال فيه و قد سمى منهجه باسم المنطق و كانت الطابع التأملي الفلسفي غالبا على تفكيره لكن لم تتسخ هذه الأفكار و ترتفع إلى مستوى المنهج العلمي إلا في الحضارة الإسلامية حيث اهتم علماء الإسلام بمنطق أرسطو و استعملوا هذا المنطق في وضع علومهم ، و اهتدوا إلى الاستقراء و الملاحظة و التجربة [9] و فضلا عن استخدام المنهج الاستنباطي و المنهج الاستقرائي فقد غذّوا هذه المناهج بمناهج علمية أخرى تميزت بدقتها و عمقها في البحث العلمي مثل : منهج القياس المستخدم في علم أصول الفقه و منهج تخريج الأحاديث النبوية الشريفة [10] و على قبس هذه المعرفة أخذ روجر بيكون (ت 1294 م) و ليونارد ديفنشي (ت 1515 م) و غيرهما ممن طالبوا باستخدام الملاحظة و التجريب أدوات القياس للوصول إلى الحقائق و تم استخدام المنهج التجريبي بطريقة ضيقة بسبب بقايا الهيمنة الكنسية و لما أتى فرنسيس بيكون (ت 1626) بعث الحياة في فكرة روجر بيكون و قال بالاستقراء الكامل و بالتجارب و ضرورة الاستنباط و النشاط العقلي و كان المنهج الصحيح عنده هو الاستقراء المصبوب في قالب عقلي و اهتدى – بهذه الملاحظات و المبادئ – من جاء بعده مثل جون ستيوارت ميل و كلود برنارد الذين نضج على أيدهما المنهج التجريبي و ثبت دعائمه.

---

[7]– عبد الرحمان بدوي (م س) ص : 6 .

[8]– رشيد زرواتي (م س) ص : 46 ، 47 .

[9] – رجاء وحيد دويدري (م س) ص : 131 .

[10]– رشيد زرواتي (م س) ص : 53 .

ثم جاء الفيلسوف الفرنسي ديكارت (ت 1650 م) و رأى أن يضع للعلوم كلها منهجا واحدا صوره في مبحثه (مقال في المنهج) الذي يعتمد على البراهين الرياضية [11] أن أول من استعمل كلمة " علم المناهج " أو " المنهجية " هو الفيلسوف الألماني **كانط** و ذلك عندما قسم المنطق إلى قسمين "

***مذهب المبادئ** : و يبحث في الشروط و الطرق الصحيحة للحصول على المعرفة .

***علم المناهج** : ويهتم بتحديد الشكل العام لكل علم و تحديد الطريقة التي يتشكل بها أي علم من العلوم [12] .

الفرع الثالث: أهمية مناهج البحث العلمي :

تكمن أهمية دراسة علم المناهج في النقاط الآتية : [13]

1-تزيد الأجيال الجديدة بطرق التفكير العلمي الصحيح .

2-الوقوف على أحد أهم العوامل في التقدم العلمي المطرد .

3-تلخيص الفكر من الخرافات و الأوهام و الجدل النظري .

4- مساعدة الدارس على تنمية قدراته في فهم أنواع البحوث .

5-الإلمام بالمفاهيم و الأسس و الأساليب التي يقوم عليها البحث العلمي .

6- يساعد الباحث على الاختيار السليم لمشكلة معينة لبحثه و صياغة فروضها و اختيار الأساليب لدراستها و التوصل إلى نتائج يوثق بصحتها .

7- فتح الطريق أمام الاختراعات و الاكتشافات العلمية التي يمهد لها الإلمام بمناهج البحث و إحكام وسائله و أدواته .

يقول الدكتور بدوي " تقدم البحث العلمي رهين بالمنهج ، يدور معه وجودا و عدما دقة و تخلخلا ، خصبا و عمقا ، صدقا و بطلانا ، ومن هنا كان الاهتمام البالغ بتقنين مناهج البحث العلمي من أيام أرسطو حتى يوم الناس هذا و يمكن أن نفسر تطورات العلم و المعرفة العلمية بأدوارها المتفاوتة عن طريق بيان دور المنهج العلمي في تحصيلها " [14] .

---

[11]- رجاء وحيد دويدري (م س) ص : 131 .

[12]- عبد الرحمان بدوي (م س) ، ص : 7 .

[13]- أنظر : رجاء وحيد دويدري (م س) ص : 130 .

حامد طاهر مدخل إلى علم المنهج ، ص : 7 ، 8 .

[14]- عبد الرحمان بدوي (م س) ، ص : 7 .

الفرع الرابع : مميزات المنهج الإسلامي في البحث العلمي :

إن المنهج الإسلامي في البحث العلمي – عموما – له مميزاته وخصائصه التي ينفرد بها دون غيره من المناهج الأخرى . لأنه يستقي أصوله من الشريعة الخالدة ، أي من الله الخالق العليم بما خلق وقدّر {ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير [}الملك14] . فمن خصائص المنهج الإسلامي الثبات بعكس المناهج الأخرى التي تتبدل وتتغير بين الحين والآخر، وقد تظهر نظريات جديدة تلغي القديمة بينما يظل المنهج الإسلامي ثابتا في أصوله وقواعده في كل زمان ومكان {فلن تجد لسنة الله تبديلا. ولن تجد لسنة الله تحويلا [} فاطر 43] . ومن خصائصه أيضا أنه شامل ومتكامل ، فهو لا يركز على ناحية واحدة في هذا الكون كما لا يركز على فكرة محددة وإنما هو مسخر لخدمة الإنسان في شؤونه كلها وفي معاشه ومعاده ، فهو يجمع بين الحياة والآخرة وبين المادة والروح.[15]

كما وضع الإسلام بعض المبادئ والقواعد التي تضبط منهجية البحث العلمي وتميّزه عن غيره وتصونه من أي انحراف على الهدف أو تضييع للجهود والأوقات . وسنكتفي هنا بضابطين مهمّين لسلامة البحث العلمي وهما :[16]

أولا: التلاؤم بين المنهج وموضوع البحث: وهو من أبرز مميزات المنهجية الإسلامية ونجاحها في تحقيق العلم في كافة المجالات لأنّ لكل مجال معرفي منهجا علميا يناسبه فاكتشاف الحقائق والقوانين في الكون والطبيعة يلزمه المنهج التجريبي والبحث في الأخبار والروايات والأسانيد يناسبه المنهج التاريخي وهكذا بقية المواضيع. وعدم التناسب بين المنهج والموضوع يؤدي إلى فساد كبير في مجال البحث العلمي ، وهذا ما وقع فيه الفكر الغربي لمّا حكّم أصحاب الاتجاه المادي المنهج التجريبي في قضايا ما وراء المادة. وصاروا ينكرون الغيبيات ويحصرون العلم فيما هو خاضع للحس والتجربة فقط ، وغيرُ ذلك – في رأيهم– ليس علما ولا حقيقة؛ وإنما هو عبث وهراء.

ثانيا: التناسب بين مجال المعرفة وقدرة العقل : إن الإسلام لا يريد أن يبدّد طاقة العقل فيما لا فائدة منه . ولا يريد أن يجزّ بالعقل في مجالات من البحوث تفوق قدرته وطاقته . لذلك حظر – مثلا – البحث في كنه الذات الإلهية ، أو البحث في كنه عوالم الغيب وفي حقيقة الروح وموعد قيام الساعة لأن تلك الأمور ممّا استأثر الله بعلمها، يقول عز وجلّ :(ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)[الإسراء 85]

---

[15]– نادية حسين صقر: العلم ومناهج البحث في الحضارة الإسلامية. ص: 118 ، 119.

[16]– حلمي عبد المنعم صابر: منهجية البحث العلمي وضوابطه في الإسلام.ص:20–23

الفرع الخامس : منهجية علماء الإسلام في علوم الشريعة الإسلامية:

أولا: اهتمام الفكر الإسلامي بالمنهجية :لقد رأينا سابقا نشأة و تطور مناهج البحث عبر التاريخ أن للمسلمين بارز في تطور بعض المناهج اليونانية الموروثة و تأسيس مناهج أخرى سواء في مجال العلوم الإسلامية أم في مجال العلوم الطبيعة و الكونية فما هو سر اهتمام المسلمين بالمنهج العلمي الدقيق ؟

يجيب الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي قائلا: " علينا قبل كل شيء أن نقرر حقيقة ذات أهمية في هذا الصدد و هي أن العامل الأول في إخضاع الفكر الإسلامي لمنهج علمي دقيق في البحث إنما هو الدين ، وما كان للمسلمين لولا العقيدة الدينية أن يحملوا أنفسهم مؤونة منهج شاق يستنفذ الكثير من الوقت و الجهد دون أن يكون له حصيلة من كسب مادي معين ثم يتشددون في التمسك به حتى يغدو مصطلحا لهم جميعا ، يتعارفون به و يلتقون عليه ، و يتمثل هذا الدافع الديني في نصوص كثيرة من كتاب الله تعالى من مثل قوله عز وجل ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[الإسراء 36] و قوله عز وجل و هو ينعي على أقوام غامروا بعقولهم في متاهات من الأوهام و الظنون التي من شأنها أن تغشي على الحقائق و لا تكشف عنها .﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[يونس 36] و أنت ترى كيف يتمثل في هذا الدافع النهي عن تبني أي فكرة – حتى الدين نفسه – إلا عن طريق ما يثبته العقل الصافي من الدلائل اليقينية التي من شأنها أن تكشف عن حقيقة المطلوب " [17] .

و ترجع أهمية المنهج إلى كونه الطريق المأمون في الوصول إلى العلم الصحيح و الإسلام له كنايته الخاصة بطلب العلم حيث أمر بالعلم و أثنى على العلماء و ذم الجهل و الجاهلين و طالب بإقامة البرهان و الدليل على أية دعوى يدعيها الإنسان ، وأمر بالاعتبار ، قال تعالى : ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر 2] و الاعتبار هو القياس و هو أحد المناهج المستخدمة في توليد الأحكام ، كما جعل الإسلام توثيق الأخبار مطلبا شرعيا و دليلا من أدلة العلم الصادق ، فقال صلى الله عليه وسلم ﴿بلغوا عني ولو آية .. و من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار﴾[18] و من هنا كانت عناية الإسلام بمنهج التوثيق للأخبار و عنايته بمنهج القياس و الاعتبار و كانت فعلا مسألة المناهج من الدين [19] .

ثانيا: منهج تحقيق الخبر الشرعي [20]: إن منهج تحقيق الأخبار الشرعية أي الروايات المنسوبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم هو من أهم المناهج لأن موضوعه الروايات التي تقوم عليها حياة المسلم و تنتظم

---

[17]– محمد سعيد رمضان اليوطي ، كبرى اليقينيات الكونية ، ص : 32 .

[18]– أخرجه البخاري ، ج 1 ، ص 27 .

[19]– حلمي عبد المنعم صابر ، منجية البحث العلمي و ضوابطه في الإسلام ، ص 17 ، 18 .

[20]– المرجع نفسه ، ص 33 ، 42 ، بتصرف .

بها شؤونه كلها ، و تحقيق السنة و حفظها مطلب شرعي يقول صلى الله عليه وسلم : ﴿يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، و تأويل الجاهلين﴾[21]

وقد حفظ الصحابة سنة النبي صلى الله عليه وسلم و حمل التابعون و أتباعهم هذه المسؤولية فشددوا في طلب الإسناد و معرفة الرواة و وضعوا مراتب للتعديل و أخرى للترجيح و غيرها من ضوابط التضعيف و التوثيق مما جعل منهج النقد عند المحدثين تنفرد به المكتبة الإسلامية و لا يوجد له نظير في المنهجيات الأخرى .

و قد و ضحت معالم هذا المنهج منذ القرن الثاني الهجري على يد الإمامين الجليلين البخاري و مسلم و غيرهما من أصحاب السنن في القرن الثالث الهجري و تتمثل خطوات هذا المنهج في ما يلي :

01- الإسناد : لقد ذكر الإمام مسلم في صحيحه آثارا كثيرة تتحدث عن منهج الصحابة و التابعين في حماية السنة و مطالبتهم بالإسناد و منها : قول عبد الله بن المبارك : " الإسناد من الدين و لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء " [22] .

02- التوثق من الأحاديث : و ذلك بالرجوع إلى الصحابة و التابعين و إلى أئمة هذا الفن ، و الرحلة من مصر إلى مصر في طلبه ، و السعي للإكثار من طرقه .

03- نقد الرواة : و يتمثل في بيان حال الرواة من صدق أو كذب و تتبع أحوالهم و سلوكهم و تاريخهم . و قد صنفوا الرواة إلى أصناف : منهم من يترك حديثه ومنهم من يتوقف في قبوله ومنهم من يؤخذ عنه .

04- تقسيم الحديث : حيث قسموا الحديث باعتبارات مختلفة منها .

أ- باعتبار طرقه : متواتر ، آحاد ، مشهور .

ب-باعتبار القبول و الرد: صحيح لذاته ، صحيح لغيره ، حسن لذاته، حسن لغيره ، ضعيف.

ج-باعتبار الانقطاع في السند : معلق ، مرسل ، منقطع ، معضل .

د-باعتبار ما ينتهي إليه السند : مرفوع ، مقطوع ، موقوف .

كما قسموا الضعف إلى أنواع عديدة ، ووضعوا علامات يعرف بها الحديث الموضوع .

و قد أثمرت تلك الجهود السابقة أعظم الثمار تمثلت في ما يلي:

---

[21]- رواه ابن عبد البر عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو، التمهيد ،ج1، ص:59.

[22]- صحيح مسلم بشرح النووي ، ج 1 ص : 68 و ما بعدها .

1-تدوين السنة النبوية.

2-ظهور علم مصطلح الحديث .

3- ظهور علوم الحديث .

4- ظهور علم الجرح و التعديل .

ثالثا: منهج الاستدلال القياسي عند الأصوليين :إن منهج الاستدلال القياسي يعرف في الفكر الإسلامي بمنهج البحث في القضايا و قد تضمنت إشارات الوحي من قرآن و سنة توجيهات عامة ترشد إلى المسالك المنهجية التي يسلكها الباحث في معرفة الحق و الوصول إليه و هذا ما فعله الصحابة رضوان الله عليهم في اجتهاداتهم و فتاويهم.

و مع عصر التابعين اشتدت الحاجة إلى وضع قواعد الاستنباط حيث ظهر الإمام الشافعي – رحمه الله – فقام بوضع قواعد مستقلة للاستدلال في كتابه " الرسالة " و فيه ظهر ما يسمى بالقياس الأصولي. و فيما يلي نبين بإيجاز بعض أنواعه و مجالات استخدامه .

1-قياس التمثيل : و يطلق عليه قياس العلة و هو : إلحاق حكم قضية بقضية أخرى للمماثلة بين القضيتين ، أي المماثلة في العلة و التي تعتبر الركن الأساسي من أركان القياس الأربعة [الأصل ، الفرع ، العلة ، الحكم] و قد اشترط الأصوليون للعلة شروطا هي في مجملها ما ذهب إليه العلماء الغرب في منهاجهم الحديث كالعلية و الاضطرار و التأثيرو الانضباط و غيرها .

2-قياس الشمول : و هو القياس المؤلف من مقدمات يقينية و أساسه المنطقي أن ما يصدق على الكل يصدق على بعض ذلك الكل و بالتالي ينطلق الحكم فيه من التعميم إلى التخصص أو من الكل إلى الجزء .

3-قياس الأولى : و هو إلحاق حكم مسألة بمسألة أخرى لكون هذه المسألة أكثر استحقاقها لذلك الحكم من المسألة الأصل .

و في الأخير ينبغي الإشارة إلى وجود تكامل بين المنهج التوثيقي للأخبار الشرعية و المنهج الاستدلالي في القضايا و الأحكام ، حيث لا يمكن لأحدهما أن يستغني عن الآخر ، فالمنهج الاستنباطي لا يتجه إلى نص شرعي ليعمل فيه الفهم و الاستنباط إلا إذا استوثق أنه خبر صحيح ثابت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .